مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢١ (٢)، ٢٠٠٧

القيمة النقديـــة لكتاب الجرجـــــاني "الوساطة بين المتنبي وخصومه"

The Critical Impact of Al-Jurjani’s Book "Mediation between Al-Mutanabi and his Adversaries"

حســن أبو الــرُّب

Hasan Abu-Alrob

نابلس: بريد الكتروني: abuhmmam100@hotmail.com

تاريخ التسليم: (٢٠٠٦/٥/١٥)، تاريخ القبول: (٢٠٠٧/٢/٨)

ملخص

هذه دراسة تبحث في كتاب أبي الحسن علي عبد العزيز الجرجاني المسمى "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وتتناول الدراسة في موضوعها الرئيس القيمة النقدية التي اشتمل عليها الكتاب، وتقف الدراسة على الأسباب التي دعت الجرجاني إلى وضع وساطته، والمصادر التي اعتمد عليها في مادة الكتاب. وتخلص الدراسة إلى أن الجرجاني قد رسم منهجاً جديداً مخالفاً لما شاع في عصره، سواء أكان ذلك من خلال المعيار الذي استعمله أم من خلال نظراته النقدية لقضايا الشعر.

Abstract

This Study examines the book by Abu al -Hassan al- Jurjani’s work which is entitled: “Mediation Between al – Mutanabi and his Adversaries”. The study deals with critical impact discussed in his book. The study also discusses the reasons behind Al-Jurjani’s mediation and the sources he referred to in his book. It concludes that Al –Jurjani has adopted a new approach which differs in the criterion used or his perspective to some critical poetic issues.

تقديـــم

وصل النقد في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى أبهى صوره، وأوج ازدهاره؛ فلم يعد قائماً على الفطرة والذوق الساذج وتتبع مواضع اللحن أو النظر في اللفظ والمعنى الجزئي المفرد معتمداً على الانفعال والتأثر دون أن تكون هناك قواعد مقررة يرجع إليها النقاد [1] كما كان عليه الحال في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصر الأموي، بل غدا باباً له أصوله وضوابطه، فقد تناول النقاد الأدب وفنونه وأسباب قوته، وعناصر الجمال فيه، وتناولوا الأديب هيئته ومنطقه ومقوماته، وهم في تناولهم لهذه الجوانب يبحثون عن أسرار الجمال الفني، وهل مبعثه اللفظ والمعنى؟ أم أنّ سرّ الجمال كامن فيما اشتملت عليه آثاره من صنعة ؟ [2] وبدأ النقاد يؤلفون الرسائل والكتب في النقد، وبقي الشعر الحديقة التي يرتادها النقاد لتتبع مواطن الجمال والقبح، والمورد الذي يرتاده اللغويون لينهلوا منه ما يدعم ثقافتهم، ويشحذ معارفهم بالحجة والبرهان.

لقد شرع القدماء بوضع اللمسات النقدية الأولى تأليفاً كما نلحظ في طبقات الشعراء لابن سلام (ت٢٣١هـ) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في الشعر والشعراء، وتلا ذلك جهود نقدية كبيرة ومتخصصة تتمثل بما قام به ابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) حين وضع كتابه "عيار الشعر" ليرسم طريق الشعر وأدواته ومعايير جودته، ثم قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) الذي وضع أول كتاب في نقد الشعر بعدما شعر بأن الناس قد عنيت باستقصاء أمر العروض والوزن والقوافي والمقاطع والغريب والنحو والمعاني التي يدل عليها الشعر فأراد شقّ طريق جديد يقصره على أمور الشعر فقال: "ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً ..."[3]. ويكثر التأليف في النقد تبعاً للحركة الأدبية، وموقف النقاد من الشعراء، ويعزو طه إبراهيم هذا الازدهار في الحركة النقدية إلى وجود طائفة من النقاد الأدباء كأبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، وابن العميد (٣٦٠هـ) والجرجاني (ت٣٦٦هـ) والآمدي (٣٧٠هـ) والصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ)[4].

ولقد انماز النقد في هذه الفترة بهيمنة الثقافات غير العربية على الفكر العربي، وترك ذلك أثره في الذوق العربي، فاحتدم الصراع بين القديم والجديد، وبقيت حياة النقد حافلة جياشة

---

(١) ينظر: مقدمة كتاب الموشح للمرزباني للمحقق محمد حسين شمس الدين.

(٢) عبد الرحمن منصور، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس، ص١٢.

(٣) قدامة، نقد الشعر، ص ١٥.

(٤) ينظر: كتاب عثمان موافي، دراسات في النقد الأدبي، ص٣٩.

بالشعراء والنقاد. ولعل مسألة التعصب للقديم لم تكن جديدة على العصر؛ فهذا ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء يصنف الشعراء إلى طبقات ويستثني الشعراء المحدثين(٥).

ويبدو الاتجاه التقليدي في الانتصار للقديم عند "الأصمعي" (ت٢١٦هـ) الذي رفض أن يقول في جرير والفرزدق شيئاً لأنهم إسلاميون، على الرغم من أنه لم يضع مقاييس محددة واضحة يتخذ منها أساساً لترتيب شعرائه (٦). ومقابل ذلك نجد من اتخذ موقفاً وسطاً بين الشعراء القدماء والمحدثين، كالجاحظ (ت٢٥٥هـ) وابن قتيبة، ثم تطور هذا الاتجاه الوسطي في القرن الرابع بتطور المقاييس التي يقاس بها الشعر، فظهر فريق من العلماء أخذ على نفسه إنصاف المحدثين وبيان ما لهم من مثالب وما عليهم من هنات، ويتجلى ذلك بكتاب الموشح للمرزباني (ت ٣٨٤ هـ) حين أتى على بعض القضايا النقدية وعرض شواهد متعددة للأخطاء التي وقع فيها الشعراء السابقين(٧)، وعمل الآمدي الموازنة الأولى بين شاعرين كبيرين هما أبو تمام والبحتري وذلك في كتابه "الموازنة بين الطائيين"(٨) ثم تصدى الجرجاني لحملة أخرى أثيرت حول شعر أبي الطيب المتنبي، فألف كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"(٩).

سبب تأليف الكتاب

يرى الثعالبي (ت٤٢٩هـ) في كتابه "يتيمة الدهر" (١٠) أن الجرجاني عمل كتاب الوساطة بعد أن كتب الصاحب بن عباد رسالته المشهورة "الكشف عن مساوئ المتنبي" مما يعني أن الوساطة جاءت رداً على رسالة بن عباد، وإلى مثل ذلك ذهب ياقوت (٦٢٦هـ) حين يروي "ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي، عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه فأحسنَ وأبدعَ وأطالَ وأصابَ شاكلة الصواب، واستولى على الأمد في فصل الخطاب..."(١١).

---

(٥) الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج١/ ٢٤.

(٦) عبد الرحمن، منصور، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس، ص٢٧.

(٧) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران، الموشح.

(٨) الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام والبحتري.

(٩) الجرجاني، علي بن عبد العزيز أبو الحسن، الوساطة بين المتنبي وخصومه.

(١٠) الثعالبي، أبو منصور، يتيمة الدهر، ج٤ / ٤.

(١١) الحموي، معجم الأدباء، ج١٣ / ٢٥.

ويرى محمود السمرة [١٢] أن طبيعة الحياة النقدية في العصر كانت تدفع أبا الحسن الجرجاني إلى تأليف كتابه، ولم تكن رسالة الصاحب سوى حافزٍ من حوافز عدة. ويرى كاتب آخر [١٣] أن الجرجاني أحسّ بالظلم الذي لحق المتنبي نتيجة إهمال كبار العلماء له، كما فعل صاحب كتاب الأغاني حين أهمل ذكر المتنبي من كتابه الضخم على الرغم من أن الكتاب قُدِّمَ هدية لسيف الدولة الحمداني الذي حاز على حظ كبير من مدائح المتنبي، وكذلك فعل المرزباني في الموشح فلم يشر بكلمة إلى المتنبي من قريب أو بعيد، ثم تلا ذلك حملة شديدة حين كتب الصاحب بن عبّاد كتابه "الكشف عن مساوئ المتنبي" وتلاه أبو علي الحاتمي في رسالته "الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره"[١٤].

والحقّ أن هناك مجموعة عوامل أسهمت في تأليف هذا الكتاب؛ فالجرجاني شاعر نظم كثيراً من القصائد والمقطوعات، وله ذوق رفيع في الشعر، على الرغم من أنه لم يتخذ الشعر صنعة كباقي الشعراء، بل درس علوم الدين واللغة ونال حظاً من العلوم والآداب ما صار به علماً وفي الكمال عالماً[١٥]، واستطاع بعدها أن يعمل قاضياً لدى الصاحب بن عباد، ونرى أن مهنة القضاء هذه قد تركت أثرها البالغ في نفسه وسلوكه في الحياة، فلم يرق له مواقف الناس من المتنبي بين مادح مفرط في المدح، وقادح مغالٍ في القدح، فتحرك فيه ذوقه الشعري ليرسم نظرات نقدية منصفة بحق علم من أعلام الأدب، وتأججت فيه مشاعر القاضي الغيور على الإنصاف حين يشعر بوقوع الظلم على أحد من الناس، وكأنه شعر أن واجبه قاضياً يحتم عليه الحكم في الشعر، كما كان يحتّم عليه الحكم بين خصمين في مسألة من مسائل الحياة.

إنّ مقدمة كتاب الوساطة توضح للدارس هذه المشاعر التي دفعته إلى التأليف وذلك حين يقول: "وما زلت أرى أهل الأدب منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم، ووصلت العناية بيني وبينهم في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: واحدة تطنب في تقريظه، وتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم، وأخرى تروم إزالته عن رتبته وتحاول الحطّ من منزلة بوّأها إياها أدبه، لذا تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته، وكلا الفريقين ظالم له أو للأدب

---

(١٢) السمرة، القاضي الجرجاني، ص ١١١.

(١٣) بدوي، القاضي الجرجاني، ص٣٩. وينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، حكومة القاضي الجرجاني، ص١٩، ٣٦.

(١٤) الحاتمي، (ت ٣٨٨هـ) الرسالة الموضحة.

(١٥) ابن خلكان، (ت٦٨١ هـ) ج٣ /٢٧٩.

فيه... [١٦]. ولعل مواقف العلماء والعامة في عصره من الشعر القديم والحديث، وتعصب كثير منهم للقديم وقدحهم بالحديث أسهمت في تأليف هذا الكتاب من أجل أن يوضح رأيه في هذه المسألة، ويدلي دلوه وسط هذا الجدال.

إنّ هذه العوامل مجتمعة تدلّ على ما كان يشعر به الجرجاني من مرارة الظلم الذي يلحق بالشعراء المحدثين لكونهم محدثين فقط. وحين اندفع لتأليف هذه الوساطة اندفع ليخطّ درباً آخر في تقويم نظرة العلماء النقدية للشعر، والسير بها في طريق جديد بعيد عن التعصب للقديم لكونه قديماً ورفض الحديث من الشعر لكونه حديثاً.

لذا فإن قيمة الكتاب النقدية تنبع أولاً من هذه العوامل المجتمعة التي تم ذكرها؛ لأن قيمة أي عمل تنبع من هدفه ومنهجه ونتائجه. وكتاب القاضي الجرجاني هذا هو في جملته تصويب لطريقة النقد في عصره على الرغم من أنّ الكتاب حمل عنوان الوساطة بين المتنبي وخصومه.

مصادر الكتاب

لا شك أن القاضي الجرجاني قد تأثر حين وضع مادة كتابه بما كتبه رجال الأدب قبله، كابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، ثم كان تأثره واضحاً بالآمدي في كتابه الموازنة بين الطائيين، ما دفع بعض المحدثين إلى القول: "وذوق القاضي الجرجاني الأدبي هو ذاته ذوق الآمدي، ويلتقي معه في معظم القضايا النقدية والبلاغية"[١٧]. ويرى كاتب آخر أن دين الجرجاني للآمدي كبير لأنه قد تمثل آراءه بحذق وذكاء دون أن يذكر الآمدي مرة واحدة[١٨]. ولا عيب أن يفيد اللاحق من السابق، فهذه سنّة الحياة في نقل العلوم والمعارف، على أنّ الجرجاني أفاد وتميّزَ بما قدّمه في وساطته لأنه أقامها على أساس المقايسة وليس الموازنة كما فعل الآمدي لذا وجد القدماء في عمله هذا أنه أعرب عن تبحره في الأدب وعلم العرب، وتمكّنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح في البلاد[١٩].

---

(١٦) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٣.

(١٧) أبو حمدة، أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة، ص١٠٩.

(١٨) الثويني، منهج النقد الأدبي عند العرب، ص٢١١.

(١٩) الحموي، معجم الأدباء، ج١٣ / ٢٥.

ويلحظ الدارس لمادة الكتاب أن المؤلف قد اطّلع على التراث الشعري قديمه وحديثه وبخاصة شعر أبي الطيب المتنبي وشروحه وشعر أبي تمام والبحتري وأبي نواس وابن الرومي، وقرأ ما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته التي ذكر فيها مساوئ شعر المتنبي وكذلك رسالة أبي علي الحاتمي، وغير ذلك مما كان يأخذه النقاد على شعر المتنبي. ويعد كتاب القاضي الجرجاني هو الثاني بعد موازنة الآمدي في مواجهة مواقف النقاد من الشعراء، على ما بين الكتابين من اختلاف.

وقد اشتملت وساطة الجرجاني على عدد من النظرات النقدية العميقة التي تعدّ قيمة نقدية رائعة في ذاك العصر أضاءت الطريق لغيره من النقاد والأدباء ممن جاء بعده، ويمكن توضيح تلك النظرات على النحو الآتي:

١. الحرص على العدل والإنصاف في الحكم

لعل ما يلفت نظر القارئ لكتاب الوساطة حرص صاحبه الشديد على وضع معيار واضح، في الحكم على شعر شاعر، وكأنّ الجرجاني يعدّ وجود موقف نفسي قبل القيام بعملية النقد أمراً لا ينتج عنه حكم منصف، ولا حجة مقنعة، لذا تجده حريصاً على ذمّ ما يمكن أن يكون حاجزاً بين الناقد والحكم المنصف كالحسد والكره والتعصب؛ لأن هذه الأشياء ستقلب الحسن قبحاً، والجودة رداءة، وكأنه ينطق بلسان الشاعر:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ولكنّ عين السخط تبدي المساويا

فالناقد البصير حين يريد أن يمارس مهنته عليه أن يتوخى العدل والإنصاف؛ لأنه عندئذ يكون مشتغلاً بعلم هو ملك للناس عامة لا يحدّ بزمن أو مكان. ولا سبيل للوصول إليه بالنظر إلى الأهواء الذاتية، إذ لا مكان للأهواء في العلم، لذا حفظ الناس الشعر القبيح والحسن، وتمثلوا به في المسائل اللغوية، وكذا الحال في الأخبار والنوادر، ولو حفظ الناس ما وافق أهواءهم فقط لما وصلنا من الشعر والأخبار إلاّ قليل. وترى الجرجاني مدركاً لهدفه، وواعياً لمطلبه حين شرع في وساطته، فتجده يلحّ على نبذ الأهواء من الحكم". وأهل النقص رجلان: رجلٌ أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه؛ وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته، ومؤثّلاً في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرتْ به الهمة عن انتقاله؛ فلجأ إلى حسد الأفاضل واستغاث بانتقاص الأماثل..."[٢٠].

---

(٢٠) الجرجاني، الوساطة، ص١.

وهو في قوله السابق يؤكد على أن الحسد صفة بغيضة تدلّ على ضعف صاحبها في الوصول إلى رتبة المحسود، وتدفعه إلى الانتقاص من قيمة كلّ جميل وحسن، وتجعله يحاول التستر على عجزه في جذب الناس إلى مشاركته.

ودلالة مقدمة الكتاب عميقة لمن تأملها وسبر أغوارها؛ فهي خطاب نقدي موجه للنقاد بخاصة ولجمهور القراء بعامة، فنرى الجرجاني من خلالها يحاول أن يرسخ مبدأ الحرص على العدل في الأحكام، فهو الذي يجلب الفائدة والنفع، وهو الذي بوسعه أن يقنع ويحمل عقل الناقد على التمحيص والتبصر قبل الاستعجال في الحكم.

إنّ عملية النقد هي ثروة أدبية ولغوية، وهي ثروة علمية في آخر المطاف، والعلم رابطة قوية يلتقي عليها جمهور العلماء والمفكرون، والانتساب للعلم أدعى للتواصل بين الناس من غيره من الوشائج "ولم تزل العلوم – أيّدك الله – لأهلها أنساباً تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحاماً تتواصل عليها ...ولا حرمة أولى بالعناية، وأحقّ بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عِرْضَه... من حرمة العلم الذي هو رونق وجهه ووقاية قدره، ومنار اسمه، ومطية ذكره"[٢١].

والجرجاني حين يجعل العلم رابطة قوية بين الناس، كصلة الأرحام إنما يريد أن يصل بنا إلى الحض على صون هذه الرابطة وعدم الإساءة لها بالحيف والجور "وكما ليس من شرط صلة الرحم أن تحيف لها على الحق، أو تميل في نصرها عن القصد، فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك"[٢٢].

إنّ هدف الجرجاني من مقدمته هذه حضّ الناقد على التماس الأحكام العادلة، وترك هوى النفس في الحكم، ولا شك في هدفه هذا؛ فقد عمل قاضياً فترة طويلة، وشهد له الناس بالنزاهة والعدل فكان "حسن السيرة في قضائه صدوقاً"[٢٣]. لذا فهو يبرأ من طريقة النقد التي كانت شائعة في عصره، ويخط درباً آخر في توخي الموضوعية وابتغاء الإنصاف في عصر كان يموج النقد فيه بالتعصب إمّا للقديم لقدمه أو للحديث لحداثته، ثم ظهرت موجة أخرى من التعصب لبعض الشعراء دون سواهم، وتتبع هنات شعراء آخرين، فلحق الشعراء ما لحقهم من الأذى في حياتهم ومماتهم، حين تبوأ بعضهم مكانة ليست له، وحُطّ من شأن بعضهم الآخر على

---

(٢١) الوساطة، ص٢.

(٢٢) نفسه، ص٢.

(٢٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٨١/٢.

جودة شعره وبراعته. لذا تأتي مقدمة الجرجاني لتعيد تصحيح المعيار من جديد، ولتطعن بطريقة النقد المجحفة السائدة في ذاك العصر، وهي مقدمة شجاعة جريئة أبت أن تميل مع ريح أو تستسلم لإغراء، وهي من السمات الجلية التي يمكن لمسها في الوساطة.

ولم يكن حديث الجرجاني عن العدل والإنصاف في الحكم حديثاً عابراً، بل كان طريقه الذي سار عليه من بداية الكتاب إلى منتهاه، ليس كما فعل أبو سعد محمد بن أحمد العميدي حين وضع كتابه "الإبانة عن سرقات المتنبي" فتراه في مقدمته يمدح العدل ويذم الظلم "والظلم قبيح، وهو من الحكام أقبح وأشنع، وجحود الفضل سخيف، وهو من الفضلاء أسخف وأفظع .... وأكثر آفات كتابنا أنهم لا يهتدون لتعليل الكلام وتشقيقه، ويتبعون الهوى فيضلّهم عن منهج الحق"(٢٤). ثم نجده يتحامل على المتنبي، ويبعد عن الموضوعية "وكتابه -الإبانة- على ما فيه من التحامل لم نجد فيه شيئاً من ذلك التعليل والتحليل الذي يطالب به أهل الأدب"(٢٥).

وإذا كان الجرجاني يضع معيار العدل في الحكم ويقرره أساساً مهماً في عملية النقد، فإننا نجده يلحّ في تثبيت بعض القناعات قبل الإقدام على النقد؛ فيعود إلى الشعر القديم الذي تعصّبَ له جلّ العلماء في العصر العباسي، ويعرض الشواهد المختلفة منه ليبين أن هذا الشعر لم يخلُ من هنات ومآخذ. وهو بعرضه هذا يريد أن يقرر صعوبة العثور على شعر- بعيداً عن العصر الذي ينتمي إليه – خالٍ من العيب "ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه؛ إمّا في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه أو إعرابه"(٢٦). ويذكر عشرات الشواهد على ذلك من العصرين الجاهلي والإسلامي، وهو يعجب لأمر النحاة الذين يتكلفون لهم الاحتجاج دون غيرهم من الشعراء ويرى أن الباعث على ذلك هو شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق إليه.

ويوضح الجرجاني أن الشواهد التي تدل على وقوع أصحابها بالخطأ كثيرة متعددة، وأنه لم يذكر إلا اليسير منه، ولا يعني ذلك أنه يغض من مكانة متقدم أو يدافع عن محدث، بل الغاية أن يصل الناقد إلى أنّ الشاعر معرضٌ للميل والانحراف والوقوع في الخطأ وذلك لا يقلل من مكانته أو شاعريته.

---

(٢٤) العميدي، (ت٤٣٣هـ)، الإبانة عن مساوئ المتنبي، ص١٩.

(٢٥) عبد الرحمن، اتجاهات النقد الأدبي، ص٥٢.

(٢٦) الوساطة، ص٤.

لذا لا يجوز تفضيل شاعر على آخر لأن الأول قديم والثاني محدث؛ فالشعر الجيد لا يختص بزمن دون آخر، كما قال ابن قتيبة: "ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ قوماً دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره"(٢٧). وقيل إنّ عنترة وهو الذي عاش في العصر الجاهلي كان يشعر أن الشعراء لم يتركوا له شيئاً إلاّ قالوه وكأنه يعدّ نفسه محدثاً (٢٨)، وذلك حين بدأ معلقته المشهورة بقوله(٢٩):

هل غادر الشعراء من متردَّمِ   أم هلْ عرفتِ الدار بعد توهُّمِ

فماذا يقول الشعراء الذين عاشوا بعده بمئات السنين؟ لذا فحديث الجرجاني عن الإنصاف وعدم التعصب في النقد جدير بالتأمل والتفكير؛ إذ لا معنى للنقد دون معيار العدل، لذا فالجرجاني يعيد توجيه حركة النقد توجيهاً سليماً يتجاوز النظرة الذاتية للأديب، وقد اتسم منهجه بعامة في الحرص على العدل، وإذا ما نظرنا "إلى منهجه في الدفاع عن شعر المتنبي رأيناه بنى لنا منهجاً واضح المعالم، بيّن الملامح، إذ بدأ بالدعوة إلى العدل في الحكم وعدم تناول الموضوع بروح التحيز والهوى"(٣٠). ولا نستغرب حين نقرأ في كتب المحدثين أن نرى بعضهم يحض على لزوم هذا المعيار فترى بعضهم يقول: "فما أظنّ صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها، إنّه حَكَمٌ أمين فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة رشيدة لا تميل مع أي هوى ولا أي تعصب"(٣١).

٢. عناصر الفن الشعري

ومن الأمور التي يقررها الجرجاني أيضاً وتسترعي الانتباه تحديده للعناصر التي يتولد منها الشعر كالطبع والرواية والذكاء والدربة "فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان"(٣٢) وهو بذلك يتجاوز ما قاله بعض العلماء في تعريف الشعر ونعني بذلك قدامة بن جعفر حين حدّ الشعر بقوله: "إنه قولٌ موزون

(٢٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١ /٦٣.

(٢٨) القيرواني، (ت ٤٦٣هـ) العمدة، ج٩١/١.

(٢٩) عنترة، الديوان، ص١٩٩.

(٣٠) سلام، محمد زغلول، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، ص٣٠٣.

(٣١) ضيف، النقد الأدبي، ص٥٧.

(٣٢) الوساطة، ص١٦.

مقفى يدلّ على معنى"[٣٣]، على الرغم من أن قدامة قد ذكر الطبع بعد ذلك دون أن يقف عليه كما نجده حين يتحدث عن عيوب اللفظ بقوله: "فأما أصحاب التكلف ... فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع"[٣٤]. وكأن الجرجاني يؤكد بعض ما قاله ابن طباطبا حين ذكر شيئاً عن الطبع في حديثه عن أدوات الشعر".. فمن صحّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه"[٣٥].

ولعل الجرجاني قد أفاد من مثل هذه الآراء المتقدمة وبنى عليها، وذاك ما حدا بعض المحدثين أن يعدّ هذه العناصر من أعمق الآراء النقدية في بيان حوافز الإبداع الفني[٣٦]. فالشعر لم يعد مقياسه الوزن والقافية فقط بل لا بد من طبع وذكاء ودربة ورواية، والطبع والذكاء يولدان مع الإنسان بينما الدربة والرواية يكتسبان اكتسابا. وقد فرّق العلماء القدماء بين الشاعر المطبوع والشاعر الذي يعاود النظر في شعره بالتنقيح والتحسين، وأطلقوا على شعر الثاني شعر الصنعة، كما كنا نقرأ عن زهير بن أبي سلمى وغيره ممن سموا بعبيد الشعر ...

والجرجاني يفرق بين الشعر المطبوع والمصنوع، حين يرى أن الشعر الجيد هو ما جاء من غير تعمّل "وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع، وتجنّب الحمل عليه والعنف به؛ ولست أعني بهذا كلّ طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وأُلهِمَ الفصل بين الرديء والجيد"[٣٧].

وقد أكد بعض النقاد اللاحقين ما ذهب إليه الجرجاني، فهذا أبو علي المرزوقي في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام يعدّ عيار اللفظ الطبع والرواية، وعيار الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز، وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن الطبع واللسان، وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدربة ودوام المدارسة.[٣٨] غير أنّ

---

(٣٣) ابن قدامة، نقد الشعر، ص١٧.

(٣٤) نفسه، ص١٧٣.

(٣٥) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص٤.

(٣٦) السمرة، القاضي الجرجاني، ص١٣١.

(٣٧) الوساطة، ص٢٥.

(٣٨) المرزوقي، شرح حماسة أبي تمام، ج١ / ٩-١١.

مفهوم الشعر حديثاً بدأ بالتغير فربطه بعضهم بجيشان العاطفة والخيال [٣٩] وأضاف بعضهم الذوق السليم[٤٠] أيضاً.

وهذه الأمور وإن اختلفت في المسمى غير أن دلالاتها لا تبعد كثيراً عما ذهب إليه الجرجاني الذي أعطى للذوق أهمية بالغة في تمييز الكلام الجيد من الرديء سواء أكان شعراً أم كان نثراً كما في قوله: "فإنّ العامي يميز بذوقه الأعاريض والأضرب، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر"[٤١].

٣. **أثر البيئة في اختلاف جودة الشعر**

يرى الجرجاني أن البيئة التي يعيش فيها الشاعر لها أثرها في جودة شعره، "ولذلك ترى شعر عدي وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ... لملازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب"[٤٢].

وقد حاول أبو تمام الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ، ويورد الجرجاني شواهد على توعر أبي تمام وتقصيره عن اللحاق بالقدماء. والقصد من ذلك أن سلامة الألفاظ دلالة على صحة الطبع والعكس صحيح. "إذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ... فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين... فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم"[٤٣].

ويفهم من كلام الجرجاني أن صحة الطبع معقودة بالبيئة التي يعيش فيها الشاعر، فكلما ابتعد عن حياة البدو إلى الحضر سلست ألفاظه، وسالت معانيه، والعكس صحيح.

ويورد المرزباني[٤٤] في موشحه أن الأعراب أكثر إقواء في الشعر من غيرهم، وهذا النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ لا يسلم من هذا العيب، وحين يذهب إلى يثرب يصارحوه الناس هناك بما يعيبون من شعره، فيتدارك ذلك ويصلحه، وهو

---

(٣٩) عازار، نقد الشعر، ص٢٧٥. وينظر: أحمد أمين، النقد الأدبي، ص٧٩.

(٤٠) شكري، دراسات في الشعر العربي، ص٢٣٨.

(٤١) الوساطة، ص٤١٣

(٤٢) نفسه، ص١٨.

(٤٣) نفسه، ص٢٥.

(٤٤) الموشح، ص٥٠-٥٢.

الذي يقول "دخلتُ يثرب وفي شعري شيء وخرجتُ وأنا أشعر الناس"، ولعل استعمال أهل المدينة للدف وأدوات الموسيقا يحسِّن من قدرتهم على النظم وإقامة الوزن، ويضاف إلى ذلك طبيعة الحياة التي إذا قورنت بحياة الأعراب كانت سهلة بعيدة عن التعقيد.

وإذا كان الجرجاني يربط بين صحة الطبع وعذوبة اللفظ فإنه بذلك إنما يوافق ما ذهب إليه الجاحظ حين انتصر للفظ بقوله: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني. وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء؛ وفي صحة الطبع وجودة السبك"(٤٥). ويخالف ذلك عبد القاهر الجرجاني الذي يرى الشأن في النظم من خلال ائتلاف اللفظ والمعنى معاً: "واعلمْ أنه مما هو أصلٌ في أن يدقّ النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحدّ أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن تحتاج في الجملة أن تضعها في النفس وضعاً واحداً"(٤٦).

والحديث في قضية النظم طويل ليس هنا مكانه، لكن القصد من الإتيان به هنا بيان اختلاف العلماء في نظرتهم للقيمة الجمالية أهي في اللفظ أم في المعنى؟ ولعل صاحب الوساطة يرى في سلامة اللفظ وسهولته قيمة جمالية عليا لا بد من تأملها عند القيام بعملية النقد. والشعر لا يحبب إلى النفوس بالمحاجة والجدال والمقايسة "وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ويقربها الرونق والحلاوة، وقد يكون الشيء متقناً محكماً ولا يكون حلواً مقبولاً"(٤٧).

إنّ أثر البيئة في الشعر قائم لا يمكن تجاهله، لذا يستطيع الناقد أن يميز بين شعر البادية وشعر الحضر، فالشاعر الذي يعيش في الصحراء يغرف من ألفاظ بيئته ويستلهم من طبيعتها ما شاء أن يستلهم، والشاعر بعد كل ذلك هو ابن بيئته وعصره، وليس شعر القدماء كشعر المحدثين ولا يطلب من المولدين أن يتبعوا الجاهليين في أنماط شعرهم وأساليبهم وصورهم فلكل من الفريقين إمكاناته وظروف بيئته وعصره التي تملي عليه ما يقول، لذا فشعر المحدثين أقرب إلى حياتهم إذا كان سهلاً ليناً بعيداً عن الغرابة والبداوة، ويكون الشاعر صادقاً مطبوعاً غير متكلف إذا جاء شعره كذلك(٤٨).

---

(٤٥) الجاحظ، الحيوان، ج٣ /٤٤٤.

(٤٦) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص٩٣.

(٤٧) الوساطة، ص١٠٠.

(٤٨) سلام، محمد زغلول، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، ص٢٩١.

٤. التعليـــل في الأحكام

لعل من أبرز القيم النقدية التي تتجلى في وساطة الجرجاني الحرص على التعليل والمحاجة، ويتضح ذلك من خلال الطريقة التي يعرض بها مادة الكتاب؛ فأنت تراه يسوق لك الشواهد من شعر القدماء ومشاهير المحدثين ليؤكد لك أن الشعر مهما علت مكانة صاحبه لا يمكن أن يستوي على سمت واحد من الجودة والإتقان، بل تجد فيه الغثّ كما كنت تجد السمين، وتلحظ فيه ما تكره كما كنت تشعر فيه ما يروق ويحسن. والجرجاني يمتطي في ذلك طريق التكرار في بيان أهمية التعليل لتعزيز ما يذهب إليه في ذهن القارئ، كما نجده حين يعرض شواهد من شعر أبي نواس وأبي تمام فيقول: "وإنما خصصت أبا نواس وأبا تمام لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وإمام أهل الصنعة، وأريك أن فضلهما لم يحمهما من زلل"(٤٩). ويذكر بعض ما عيب على المتنبي ثم يعرض بعض جيده ويقول: "وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبي الطيب بيتاً شذّ وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ... وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع، وروائعه وقد بهرت، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة ولا تقدمه الفضائل المجتمعة"(٥٠). وحين يأتي على التعقيد وغموض المعنى يبين أن ذلك لا يسقط شاعراً، "ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد؛ فإنّا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظهما وأفسد به لفظهما"(٥١).

ومن الأمثلة على تعليله حين أخذ النقاد على المتنبي المبالغة والغلو في وصف نفسه بشدة النحول، وذلك في قوله(٥٢):

كفى بجسمي نحولا أنني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فنجد الجرجاني يعلل ذلك بقوله " فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في شعر الأوائل، والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل، ومستقبح راد..."(٥٣) ثم يأتي بأمثلة على غلو القدماء والمحدثين، كقول أحدهم (٥٤):

---

(٤٩) الوساطة، ص٨٢.

(٥٠) نفسه، ص ١٠١.

(٥١) نفسه، ص ٤١٧.

(٥٢) المتنبي، الديوان (شرح الواحدي) ج١ / ٥١.

(٥٣) الوساطة، ٤٢٠.

(٥٤) نفسه، ص٤٢٠.

ألا إنمـا غـادرتِ يـا أمّ مـالـكِ صدى أينما تذهبْ به الريح يذهب

وقـول آخـر (٥٥): ذابَ فلـو زُجّ بجسمانِـهِ فـي ناظـرِ الوسنـان لـم ينتبـهْ

وقول مهلهل (٥٦): ولولا الريحُ أسْمِعَ من بحجْرٍ صليـلَ البيض تقْـرَعُ بالـذكـورِ

ويعقب على ذلك بقوله: "وأمثال هذا مما لو قصدنا جمعه لم يُعْوز الاستكثار منه"(٥٧).

ويردّ على من يسأل: "فإنْ قالوا ألسنا نسامح المتقدمين بالخطأ، ولا نحتمل لهم هذا الإغراق الفاحش؟ قلنا: أو لستم قد سلّمتم لهم الإحسان في غير ذلك، ولم تسقطوهم من عداد الشعراء لأجله فأجروا هذا الرجل مجراهم وألحقوه في الحكم بهم"(٥٨).

وكما علل الإفراط والغلو نجده يعلل بعض ما أخذ على الشاعر من الإفراط في الاستعارة وذلك في قوله (٥٩): مسرّةٌ في قلوب الطّيب مفرقها وحسْرّة في قلوب البيض واليَلَبِ

وقوله أيضاً (٦٠): تجمعت في فؤاده هممٌ ملءُ فـؤاد الزمان إحداها

فقيل إنّ الشاعر جعل للطيب والبيض واليلب وللزمان قلوباً وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب أو بعيد، ويأتي الجرجاني بأبيات لقدماء ومحدثين فعلوا ما فعل المتنبي ويعقب عليها بقوله: "فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصاً متكامل الأعضاء، تام الجوارح، فكيف أنكرت على أبي الطيب أن جعل له فؤاداً ! فلم يُحر جواباً"(٦١). ثم يوضح جمال ما ذهب إليه المتنبي من استعارته بقوله: "فإنما يريد أن مباشرة مفرقها شرفٌ، ومجاورته زين ومفخرة، وأن التحاسد يقع فيه، والحسرة تقع عليه، فلو كان الطيب ذا قلب كما لو كانت البيض ذوات قلوب لأسفت؛ وإذا جعل للزمان فؤاداً أملأته هذه الهمة فإنما أورده على مقابلة اللفظ باللفظ"(٦٢). وغير ذلك من الأمثلة. ولعل طريقة المقايسة التي سار عليها الجرجاني في مادة الكتاب هي نوع من أنواع

(٥٥) نفسه، ص٤٢٠.

(٥٦) نفسه، ص٤٢٢.

(٥٧) نفسه، ص٤٢٣.

(٥٨) السابق، ٤٢٦.

(٥٩) المتنبي، الديوان، ج٢ /٨٦٣.

(٦٠) نفسه، ج٢ /١٠٦٦.

(٦١) الوساطة، ص٤٢٩، ٤٣٠.

(٦٢) نفسه، ص٤٣٢.

التعليل الذي لجأ إليه؛ فكثير من المآخذ التي عابها النقاد على المتنبي كان يعرضها ويقيسها بشواهد متعددة من شعر القدماء والمحدثين من أجل بيان أن ما عيب على المتنبي يعاب على غيره أيضاً، وما المتنبي إلاّ واحد من الشعراء لا يجوز النظر إلى معايبه فقط دون محاسنه.

٥. السرقات الشعرية

ليس حديث الجرجاني عن السرقات الشعرية جديداً؛ فقد تحدث عنه القدماء الذين سبقوه، وأطالوا القول فيه، ولعل الجاحظ كان من أوائل الذين عرضوا لهذه القضية، ونظر إليها بعين الناقد البصير، ثم تلاه ابن طباطبا والمرزباني وأبو هلال العسكري والآمدي ...[٦٣].

ولكنّ هؤلاء لم يخرجوا عن النظر إلى السرقة كائنة في اللفظ أو في المعنى، وقد نبّه الجرجاني إلى خطر هذا الموضوع وأهميته حين رأى أنه دقيق وخفي بحيث لا يدركه إلاّ المتخصص المتعمق الذي يكون على صلة دائمة بالتراث[٦٤]. ونراه يلج من باب جديد ليصل إلى نتيجة نظنها غير مسبوقة في رؤيته للسرقات؛ إذ نجده يقرر بعض الصفات التي ينبغي للناقد الجهبذ أن يتسم بها وذلك حين يقول: "ولست تعدّ من جهابذة الكلام، ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السَّرق والغصب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السّرق فيه والمبتذل الذي ليس أحد أولى به.."[٦٥].

والجرجاني يعترف أن هناك معاني مشتركة بين الشعراء لا سرقة فيها، وأن هناك تنازعاً في المعاني، وليس كل ما يكرره الشعراء سرقة وبخاصة في الأوصاف؛ فهناك من يشبّه الفتاة الحسناء بتريكة * النعامة ولعل بعض الشعراء شبّه بها ولم يرها، وكذلك تشبيه الخد بالتفاح والورد وكثير من الأعراب لم يرهما، وكأوصاف الفلاة وغير ذلك كثير ما قد يستعمل من دون رؤية، ولا يعد المعنى مأخوذاً حتى يجئ مجيء قول النابغة [٦٦]:

---

(٦٣) عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٦٤) الثويني، منهج النقد الأدبي عند العرب، ص ٩٢.

(٦٥) الوساطة، ١٨٣.

(*) التريكة هي البيضة بعد أن يخرج منها الفرخ، وقيل هي بيض النعام المنفرد.

(٦٦) الذبياني، الديوان، ص٣٠. وفي الديوان: يخشى الإله.

لو أنها عرضتْ لأشمطَ راهبٍ   عَبَدَ الأله صرورةٍ* متعبّدِ

وقـــول ربيعـــة بـــن مقـــروم [٦٧]:

لو أنها عرضتْ لأشمط راهبٍ   عَبَدَ الألـه صرورةٍ مُتَبتّلِ

ثـم يعقـب قـائلاً: "وأشـباه ذلـك ممـا جمـع اتفـاق الألفـاظ، وتسـاوي المعـاني، وتماثـل الأوزان"[٦٨].

فالسرقة إذن كما يراها الجرجاني تكون بيّنة حين تقع باجتماع الألفاظ على معانٍ واحدة باتفاق الوزن. وكلما قلّ الانسجام في هذه الأمور قلّ احتمال وقوع السرقة، وهو بهذا الفهم يضع المعيار الواضح للسرقات ويفصل بين أمور متشابهات قد يقع فيها الظلم على الشاعر.

ولم يكتفِ الجرجاني برسم هذا الطريق في إيضاح سبيل السرقات؛ بل نراه يحمل نظرة عميقة جديدة لم يقع عليها غيره حين يلفت النظر إلى نوع جديد من السرقات يكمن في سرقة المعاني ثم استعمالها في أغراض غير التي جاءت فيها وذلك حين يقول: "وحتى لا يغرّك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيباً، والآخر مديحاً، وأن يكون هذا هجاء وذاك افتخاراً؛ فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه وعن وزنه ونظمه وعن رويّه وقافيته، فإذا مرّ بالغبي الغُفْل وجدهما أجنبيين متباعدين، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما، والوصلة التي تجمعهما"[٦٩]، ويأتي بمثال على ذلك بقول كثير عزة[٧٠]:

أريـــدُ لأنســـــى ذكـــرها فكأنمـــا   تَمَثّلُ لي ليلى بكل سبيلِ

وقول أبي النواس [٧١]:

ملـكٌ تصـوّر فـي القلـوب مثالـــه   فكأنه لم يخْلُ منه مكانُ

(*) الصرورة: قيل هو الذي لم يتزوج أولم يحجّ.

(٦٧) اللسان، مادة: صرّ.

(٦٨) الوساطة، ص٢٠٠.

(٦٩) نفسه، ص٢٠٤.

(٧٠) كثير عزة، الديوان، ص٢٥٣.

(٧١) أبو نواس، الديوان، ص٤٠٥.

ويعقب على ذلك بقوله: "فلم يشكّ عالم في أنّ أحدهما من الآخر، وإن كان الأول نسيباً والثاني مديحاً"[٧٢]. والدلالة تكاد تكون واحدة على الرغم من اختلاف الغرض؛ فكثير لا يجد سبيلاً لنسيان ذكر محبوبته لكونها مسيطرة على قلبه، لذا فهو يراها في كل مكان ماثلة أمامه تلاحقه بطيفها وذكرياتها. وأبو النواس يجعل محبة الممدوح قد استولت على القلوب لا يستطيع الناس مقاومتها لكونها تعيش معهم وتمثل لهم في كل مكان. والدلالة عميقة واسعة لأنها لم تحد بمكان، لذا يرى الجرجاني أنّ المتنبي قصّر في قوله[٧٣]:

كَذَبَ المخبّرُ عنك دونك وصفُه   من بالعراق يراك في طرسوسا

وذلك لأنه اقتصر على من بالعراق، بينما عمّ أبو نواس القلوب والأماكن، وبين اللفظين بون في الجزالة والصحّة، على أن المتنبي تدارك تقصيره حين قال[٧٤]:

هذا الذي أبصرتَ منه حاضراً   مثلُ الذي أبصرتَ منه غائباً

كالبدر من حيث التفتّ رأيتــــه   يُهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً

والجرجاني بعد ذلك يلتمس العذر للشعراء المحدثين في تكرار المعاني لأن من تقدمهم من الشعراء القدماء قد استغرق المعاني وسبق إليها، وأتى على معظمها؛ وإنما يحصل الشاعر المحدث على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها، واعتياص مرامها، وتعذر الوصول إليها، ومتى أجهد المحدث نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً ونظم بيتاً يظنه فرداً مخترعاً ثم تصفح الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثالاً يغضّ من حسنه ولهذا السبب نراه يحظر على نفسه وغيره بتّ الحكم على شاعر بالسرقة[٧٥].

وإذا كان الجرجاني يلتمس الأعذار للشعراء المحدثين لأن الشعراء القدماء سبقوهم في الشعر وغاصوا في معانيه فإنّه يخالف بموقفه هذا ابن طباطبا الذي يتخذ موقفاً مناقضاً حين يقول: "والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم لأنهم ُسبقوا إلى

---

(٧٢) الوساطة، ص٢٠٥.

(٧٣) المتنبي، الديوان، ج١ /١٦٤.

(٧٤) نفسه، ج١ /٢٦٦.

(٧٥) الوساطة، ص٢١٥.

كلّ معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة"(٧٦)، ويقصد بذلك أن المحدثين وجدوا من يشق لهم دروب المعاني وبديع الألفاظ فعليهم أن يطوروا ويفيدوا ممن سبقهم من الشعراء.

وهكذا، نرى الجرجاني في رأيه من السرقات إنما يوسع نظرة الناقد ويعمقها حين يحكم على شاعر ما بالسرقة، لذا يرى أن موضوع السرقة "باب يحتاج إلى إنعام الفكر، وشدّة البحث، وحسن النظر، والتحرّز من الإقدام قبل التبين، ومن الحكم إلاّ بعد الثقة، وقد يغمض حتى يخفى، وقد يذهب منه الواضح الجلي على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة، متدرباً بالنقد، وقد تحمل العصبية فيه العالم على دفع العيان، وجحد المشاهدة، فلا يزيد على التعرض للفضيحة، والاشتهار بالجور والتحامل"(٧٧).

٦. السماح للشاعر أن يدافع عن نفسه

ومن الأمور التي يلحظها الدارس للوساطة أن الجرجاني في مناقشته لما أُخِذَ على المتنبي من هنات أنه يجعل الشاعر يدافع عن نفسه في مواضع متعددة، وهو أمر جدير بأن يقف عليه النقاد ويفهموا دلالته في النقد.

ولعل اشتغال الجرجاني بالقضاء قد ترك آثاره في معالجته مادة الوساطة؛ فهو يستمع للخصم ويستمع للمتهم ثم يقرر الحكم في نهاية الأمر، على الرغم من أن هذا النهج قد كشف قدرة المتنبي الفائقة في الحفظ والاطلاع على علوم اللغة وتراثها الأدبي، وكأن الجرجاني يبقي الباب مفتوحاً للأجيال لتقول كلمتها حين تقرأ المآخذ التي عابها القدماء على المتنبي، مشفوعة برأي الشاعر فيها وتعليله إياها.

ومن الشواهد على ذلك ما أُخذ على المتنبي من جمع بوق على بوقات في قوله(٧٨):

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقاتٌ لها وطبولُ

فالجرجاني يورد رأي الخصم الذي يتمثل في أن جمع بوق على بوقات خطأ، وإنما يجمع باب فُعْل على أفعال نحو: قُفل أقفال وعود أعواد، وقد يخرج عنه إلى أفعل نحو: بُرد أبْرد، فأما في أكثر العدد فالباب فعول؛ نحو جُند جنود ... ثم يورد رأي المتنبي بقوله: "وسئل أبو الطيب عن ذلك فقال: هذا الاسم مولّد لم يُسمع واحده إلاّ هكذا ولا جمعه بغير التاء، وإنما هو

(٧٦) عيار الشعر، ص٩.

(٧٧) الوساطة، ص٢٠٨.

(٧٨) المتنبي، الديوان، ج٢ /٧٣٩.

مثل حمّام حمّامات وساباط وساباطات، وقال المحتج عنه: إن أصل الجمع التأنيث، ولذلك جاء ما جاء منه بالتاء، وإن كان في الأصل مذكراً. قال: فمن جمع اسماً لم يجد عن العرب جمعه فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه، ولم يجز أن ينسب إلى الخطأ لأجله، وهذا اسم أعجمي تكلمت به العرب ولم يحفظ عنهم جمعه، فلما احتاج المولّدون إليه أجروه على أصل الجموع، وتبعوا فيه عادة العرب في الأسماء المنقولة عن الأسماء الأعجمية، نحو سرادق وسرادقات، ... وخان وخانات"(٧٩).

ثم يحسم الجرجاني الأمر بقوله: "وقد قال الفريقان ما حكيناه؛ وقد كان لأبي الطيب في الصحيح مندوحة وفي المجتَمع عليه متسع"(٨٠).

ومن الشواهد أيضاً قوله(٨١):

ولم تـرُدّ حياة بعد توليـةٍ ولم تُغثْ داعياً بالويل والحربِ

فقال الخصم: إن العرب لا تقول دعا بالويل والحرب، وإنما يقال دعا ويله، كما يقال دعا فلاناً، قال عزّ وجل: "لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً"(٨٢). فإنما يقال: دعا بكذا إذا طلب أن يؤتى بذلك الشيء... فقال أبو الطيب: يقال دعا للقتال وللخير وللشر ولما به. ومن أجله قال طرفة(٨٣):

وإنْ أُدعَ للجلّى أكنْ من حماتها وإن يأتك الأعداء بالجهدِ أجهدِ

ويقال: دعا باللهف وبالويل والحرب بيا، وأيا لأنه لفظ الداعي ... ويحسم الجرجاني الأمر بقوله: "والذي قاله أبو الطيب محكي عن العرب معروف عند أهل العلم، فإذا أراد ذكر المدعوّ قال: دعوته، وإذا أراد ما يلفظ به قال: دعا بكذا وكذا"(٨٤).

ومنها أيضا قوله(٨٥):

---

(٧٩) الوساطة، ص٤٤٤.

(٨٠) الوساطة، ص٤٤٦.

(٨١) المتنبي، الديوان، ج٢ /٨٦٣.

(٨٢) سورة الفرقان، آية: ١٤.

(٨٣) طرفة، الديوان، ص ٣٥.

(٨٤) الوساطة، ٤٦٠.

(٨٥) المتنبي، الديوان، ج٢ /٧١٣.

شديـد البعـد عـن شـرب الشّمــول   تُرنج الهند أو طلع النخيل

واعتراض الخصم أن قوله " تُرنْج "مما يغلط به العامة وأن العرب تقول: الأترج، ويردّ أبو الطيب على ذلك بقوله: أترجه وأترج وتُرنج حكاها أبو زيد وذكرها ابن السكّيت في أدب الكاتب. ولم يعقب الجرجاني على ذلك(٨٦). والصحيح أن ابن قتيبة ذكر هذه اللفظة بقوله: "الأترجة والأترُجّ وأبو زيد يحكي تُرُنجة وتُرُنج أيضاً(٨٧).

ولعل هذا الطريق الذي سلكه الجرجاني في الإتيان بردّ الشاعر على ما كان يؤخذ عليه يعدّ جديداً، وبخاصة إذا علمنا أن عدد الشواهد كثير على الرغم من أن هذه الطريقة في العرض قد ظهرت في الجزء الآخر من الكتاب، وهو الجزء الذي خصصه المؤلف لما عيب على أبي الطيب.

٧. الصراحة والجرأة في القول

ومن القيم النقدية التي يلمسها الدارس لكتاب الوساطة الصراحة والجرأة؛ فعلى الرغم من العلاقة الوثيقة التي جمعت بين الجرجاني والصاحب بن عباد، غير أن الجرجاني كتب وساطته التي ينصف بها المتنبي ويعيد الحقّ إلى نصابه، على علمه بموقف الصاحب من المتنبي وتتبعه لمعايبه وسقطاته. وهذا يدلّ على أن الجرجاني فضّل قول الحق واختار الإنصاف على المجاملة، وهي جرأة تحسب له في هذا الموقف. أما صراحته فجاءت جلية من خلال بيان أغاليط الشعراء الجاهليين وكشف موقف النحاة الذين يتأولون هذه الأغاليط بحجج وشواهد ليس من ورائها إلاّ تعظيم القدماء فقط. ونرى هذه الجرأة والصراحة جلية في تعرضه لطريقة النقاد الشكلية في الحكم على الشعر وذلك حين يقول: "وأقلّ الناس حظاً في هذه الصناعة من اقتصر في اختياره ونفيه، وفي استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن، وإقامة الإعراب، وأداء اللغة، ثم كان همّه وبغيته أن يجد لفظاً مروَّقاً وكلاماً مُزوّقاً، قد حُشيَ تجنسياً وترصيعاً"(٨٨).

إن كتاب الوساطة يعدّ من الكتب النقدية القديمة القليلة التي قامت على أساس تصحيح المعايير التي كانت شائعة في ذاك العصر، وشقت طريقاً جديداً في بيان القيمة الفنية للشعر وإن كان اعتمادها على التصويب في المنهج أكثر وضوحاً من معالجة الأثر الأدبي.

---

(٨٦) الوساطة، ص٤٧٠.

(٨٧) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ٢٤٤.

(٨٨) الوساطة، ص٤١٣.

وأظهرت الوساطة الجرجاني إنساناً وناقداً وعالماً، يعرض سقطات الشعراء ويوازنها بسقطات المتنبي، ثم يبني حكمه بعد ذلك، فلا يناقش ما خطأ الناس به الشاعر بل يقيسه بأشباهه ونظائره عند الشعراء المتقدمين، وعنده أنهم أنفسهم لم يسلموا من الخطأ [٨٩] وهو ناقد إنساني؛ فجماع مقاييس الجودة عنده هي الخلو من الابتذال والبعد عن الضعة والإغراب ثم التأثير في نفس السامع وهذا اتجاه نفسي في النقد قلّ أن تجد له مثيلاً عند النقاد الآخرين[٩٠].

ومن سماته أيضاً تواضع العلماء فتسمعه يقول لمن يناظره: "فأما اليقين الثقة، والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه ! ولو ادعيته لوجب ألاّ تقبله"[٩١].

إن هذه السمات التي تشكل بمجموعها قيمة نقدية كبيرة عالية اشتمل عليها كتاب الوساطة قد تركت صداها فيمن جاء بعد الجرجاني؛ فقد أثرت نظراته وأسلوبه في غيره من العلماء، كالثعالبي الذي حين تحدث عن المتنبي وازن بين محاسنه ومساوئه وأتى على كثير من الشواهد التي ذكرها الجرجاني في وساطته[٩٢]. و كابن رشيق القيرواني الذي يرى رأي الجرجاني في أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية ثم تكون الدربة[٩٣]. وكعبد القاهر الجرجاني [٩٤] وذلك حين تحدث عن السرقة فقد ذكر المعاني المشتركة التي لا تعدّ من قبيل السرقة، وعن الاتفاق في وجه الدلالة عن الغرض وكذلك في حديثه عن الاستعارة مما جعل بعض المحدثين يقول: "ويعدّ أبو الحسن الجرجاني من أكثر هؤلاء النقاد تأثيراً في اتجاه عبد القاهر الجرجاني. ويبدو هذا بشكل واضح من دراسته للاستعارة"[٩٥]. ومن الذين وعوا وساطة الجرجاني وتركت فيهم صداها ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) وذلك حين تحدث في المقدمة عن أهمية الدربة، ثم في حديثه عن آلات علم البيان وأدواته إذ نجده يضع الطبع ملاك الأمر كله[٩٦]، وهي أمور أشار إليها الجرجاني من قبل. ومن الذين ماثلوا الجرجاني في طريقة وساطته البديعي[٩٧]؛

---

(٨٩) مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص٢٥٦.

(٩٠) نفسه، ص ٢٦٣.

(٩١) الوساطة، ص١٦٠.

(٩٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١ / ١٢١-٢٣٣.

(٩٣) ابن رشيق، العمدة، ج١ /١٢١.

(٩٤) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٢٩٤.

(٩٥) موافي، دراسات في النقد العربي، ص١٨٥.

(٩٦) ابن الأثير، المثل السائر، ج١ / ٣٨-٤٢.

(٩٧) ينظر: البديعي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي وبخاصة ص٢٠٠ وما بعدها.

وذلك حين ترسم أسلوبه في ذكر ما عيب على المتنبي ثم ما حَسُنَ له من شعر، ويعرض ما أخذه بعض النقاد عليه.

وكما لقيت أفكار الجرجاني ونظراته صدى عند القدماء فإننا نلمسها أيضاً لدى المحدثين الذين وقفوا في مناقشاتهم النقدية موقفاً مشابهاً للجرجاني؛ فترى بعضهم وهو يتحدث عن الحرص على الإنصاف والعدل في الحكم ورفض التعصب يرى أن الظلم والتعسف يخرج الناقد من النقد: "ومهما تكن الأسباب التي تسوق متعاطي النقد إلى التعسف فيه والجور عن القصد والبعد عن روح الإنصاف، فإنّ ذلك يقدح فيهم لا في النقد نفسه"(٩٨).

ويوضح فريق آخر معنى التعصب في الأحكام بقوله: "التعصب معناه النفسي هو الانحياز كلية إلى ما نتعصب له فلا ترى فيه الخير، ونقلب سيئاته حسنات مسوقين بالهوى، متمحلين الأسباب لتجميل القبيح والمبالغة في قيمة الحسن"(٩٩). ونجد آخرين يسخرون بطريقة النقد القائمة على بدائية التفكير والجهل بأبسط قواعد النقد المقررة بدل أن يتبع نهجاً موضوعياً معتدلاً(١٠٠).

ولعلّ أهمية هذه السمة تنبثق من كونها عنصراً رئيسياً في عملية النقد، وعليها تتوقف القيمة الأدبية لأي عمل نقدي؛ إذ لا فائدة ترجى من النقد القائم على الجور والتعصب لهوى النفس، وقد أحسن بعض المحدثين حين وصف مهنة الناقد بأنها غربلة "لكنها ليست غربلة الناس. بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من أفكار وشعور وميول... فمهنة الناقد إذن هي غربلة الآثار الأدبية، لا غربلة أصحابها"(١٠١) ويعلل الكاتب هذا القول بأن الكثيرين من كتّاب العربية وقرائها لا يزالون يرون في النقد ضرباً من الحرب بين الناقد والمنقود.

وقد اعترف له جمهور من الكتاب المحدثين الذين درسوا وساطته، ولحظوا الدور الذي قام به في حركة النقد في عصره، فوصفوه بالعدل كما يقول أحمد أمين: "ووقف من كتابه موقفاً عادلاً؛ فيقول ما له وما عليه"(١٠٢). ويرى آخر "أن الكتاب اشتمل على آراء لغوية ونحوية

---

(٩٨) عازار، نقد الشعر، ص٤١.

(٩٩) مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص١٠١، وينظر: أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص١٠١.

(١٠٠) القط، قضايا ومواقف، ص٨٦.

(١٠١) نعيمة، الغربال، ص١٤.

(١٠٢) أمين أحمد، النقد الأدبي، ص٤٠٨.

وعروضية وكثير من الأحكام في الشعراء المبرّزين كأبي تمام والبحتري وأبي نواس وابن الرومي وكان موقفه من الشعراء عادلاً" (١٠٣).

إن المتأمل في كتاب الوساطة يشعر أن صاحبه وفّق في عدد من الأمور؛ فقد عزز النظرة النقدية الموضوعية حين دعا إلى العدل والإنصاف ونبذ المغالاة والتعصب واتباع الهوى، وحين بيّنَ أنّ الشاعر لا يضع من مكانته وجود بعض الهنات في شعره، وضرب أمثلة كثيرة من الشعر القديم والمحدث، وكشف عن نظرته لعناصر الإبداع الشعري، وكأنه يوجهنا إلى تذوق الشعر بطريقة قائمة على مدى ما يتركه الشعر من أثر في نفس السامع، وهي نظرة تجد الهوى في النقد الحديث؛ فليس الشاعر "من يخلق عواطف ويولد أفكاراً. إنما الشاعر من يمدّ أصابع وحيه الخفية إلى أغشية قلوبكم وأفكاركم فيرفع جانباً منها ويحوّل كل أبصاركم إلى ما انطوى تحتها، فتبصرون هناك عواطف وتعثرون على أفكار"(١٠٤). والشاعر هو الذي يرى الأشكال والألوان والأشياء ويصف لنا شعوره بها، لذا انماز عن غيره أن جاء كلامه مطرباً مؤثراً، تتوق النفوس إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما يرى العقاد (١٠٥).

وقد كشف لنا الجرجاني من حيث أراد أم لم يرد منهج القدماء في النقد، من خلال معالجتهم لشواهد الشعر التي عرضها، وهو منهج قائم على الذاتية والتعصب، والبعد عن النظرة الشمولية للعمل الأدبي، منهج لا ينظر إلا إلى سقطات الشعراء، دون موازنة ومقابلة مع غيرهم ممن سبقهم وتقدم عليهم. لذا فعمل الجرجاني موجه للنقاد بخاصة ولمحبي الأدب بعامة، لما فيه من معالم مضيئة في طريق النقد، غير أنه لم يعط المتنبي الذي وضع من أجله الكتاب إلا الجزء اليسير الآخر من الكتاب، ولو اشتمل الكتاب على ما اشتمل عليه الجزء الآخر منه لرأينا خيراً كثيراً؛ لأن هذا الجزء جاء محكماً يفيض بالفائدة، وحسن المنهج. لذا رأى بعض المحدثين أن الوساطة على ما تشتمل عليه من قيمة ظاهرة غير أنها لم تسر وفق منهج التنسيق والتنظيم العقلي للبحوث، وأن صاحبها تحامل على ابن الرومي وأبي نواس وأبي تمام (١٠٦).

وعلى الجملة فقد استطاع الجرجاني تصويب النظرة إلى النقد ثم ردّ بعض ما أخذه النقاد من الخصوم على المتنبي وذلك من خلال القضايا النقدية التي ناقشها، ومن خلال السمات النقدية التي اتسم بها في معالجته لمادة الكتاب، ولو بنى الجرجاني مادة الوساطة كلها على ما

(١٠٣) الثويني، منهج النقد عند العرب، ص٩٦.

(١٠٤) نعيمة، الغربال، ص١٠٣.

(١٠٥) الأمين، عز الدين، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، ص١٧٠.

(١٠٦) خفاجي، محمد عبد المنعم، حكومة القاضي الجرجاني، ص٤٨-٤٩.

فعله في آخرها لحصل الدارس على نفع كثير، وفائدة لا توصف. ومهما يكن الأمر فقد اختط الجرجاني درباً نقدياً فيه كثير من الجدة والتوفيق كما يلحظ ذلك الذين درسوا المتنبي وما كتب فيه من مؤلفات من بينها كتاب الوساطة الذي وقفنا عليه طويلا ...

المصادر

- **القرآن الكريم.**
- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر. (١٩٤٤). الموازنة بين أبي تمام والبحتري. القاهرة.
- ابن الأثير، ضياء الدين. (١٩٥٩). المثل السائر. ط٢. مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.
- البديعي، يوسف. (د. ت). الصبح المنبي عن حيثية المتنبي. دار المعارف، مصر. ط٢.
- الثعالبي، أبو منصور. (١٩٥٦). يتيمة الدهر. المكتبة التجارية الكبرى.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو. (١٩٦٨). الحيوان. مكتبة محمد حسين النوري، دمشق.
- الجرجاني، عبد القاهر. (د. ت). أسرار البلاغة. ط٢. دار المطبوعات العربية.
- الجرجاني، عبد القاهر. (٢٠٠٠). دلائل الإعجاز. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الجرجاني، محمد بن علي. (١٩٩٧). الإشارات والتنبيهات. مكتبة الآداب، القاهرة.
- ابن جعفر، قدامة. (د. ت). نقد الشعر. ط٣. مكتبة الخانجي للطبع والنشر.
- الجمحي، محمد بن سلام. (١٩٧٤). طبقات فحول الشعراء. مطبعة المدني، القاهرة.
- الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن. (١٩٦٥). الرسالة الموضحة. دار صادر، بيروت.
- الحموي، ياقوت. (١٩٨٠). معجم الأدباء. دار الفكر.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين. (د. ت). وفيات الأعيان. دار الثقافة، بيروت.
- الذبياني، النابغة. (١٩٨٩). الديوان. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ابن شداد، عنترة. (١٩٨١). الديوان. المكتبة الثقافية، بيروت.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد. (١٩٥٦). عيار الشعر. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
- ابن العبد، طرفة. (د. ت). الديوان. دار صادر، بيروت.
- العميدي، أبو سعد محمد بن أحمد. (١٩٦١). الإبانة عن سرقات المتنبي. دار المعارف.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (١٩٨٨). أدب الكاتب. دار الكتب العلمية.
- ابن قتيبة، = = = =. (١٩٦٦). الشعر والشعراء. دار المعارف، مصر.
- القيرواني، ابن رشيق. (١٩٨١). العمدة. دار الجيل، بيروت.
- كثير عزة، أبو صخر بن عبد الرحمن. (١٩٩٤). الديوان. دار صادر، بيروت.
- المتنبي، أحمد بن حسين. (د. ت). الديوان (شرح الإمام الواحدي) دار الأرقم، بيروت.
- المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران. (١٩٩٥). الموشح. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. (د. ت). لسان العرب. دار صادر، بيروت.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ. (١٩٦٢). الديوان. دار صادر بيروت.
- ابن العبد، طرفة. (د. ت). الديوان. دار صادر، بيروت.

المراجع

- أمين، أحمد. (١٩٦٧)، النقد الأدبي. دار الكتاب العربي، بيروت.
- الأمين، عز الدين. (١٩٧٠)، نشاة النقد الأدبي الحديث في مصر دار المعارف.
- بدوي، أحمد. (١٩٦٤ا). القاضي الجرجاني. دار المعارف، مصر.
- الثويني، حميد آدم. (٢٠٠٤). منهج النقد الأدبي عند العرب. دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان.
- أبو حمدة، محمد علي. (١٩٦٩م). أبو القاسم الآمدي، وكتاب الموازنة. دار العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- خفاجي، محمد عبد المنعم. (١٩٤٨م). حكومة القاضي الجرجاني في النقد الأدبي. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة.
- سلام، محمد زغلول. (د. ت). تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري. منشأة المعارف.
- السمرة، محمود. (١٩٦٦م). القاضي الجرجاني. المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.
- الشايب، أحمد. (١٩٦٤م). أصول النقد الأدبي. مكتبة النهضة المصرية.
- شكري، عبد الرحمن. (١٩٩٤م). دراسات في الشعر العربي. ط١. الدار المصرية اللبنانية.
- ضيف، شوقي. (١٩٦٢م). النقد الأدبي. دار المعارف.

- عازار، نسيب. (١٩٣٩م). نقد الشعر. منشورات دار مكشوف، بيروت.
- عبد الرحمن، منصور. (١٩٧٧م). اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس. مكتبة الأنجلو المصرية.
- عتيق، عبد العزيز. (١٩٧٤). تاريخ النقد الأدبي عند العربي. ط٣. دار النهضة العربية.
- القط، عبد القادر. (١٩٧١م). قضايا ومواقف. الهيئة العامة للكتاب.
- مندور، محمد. (١٩٩٦م). النقد المنهجي عند العرب. دار نهضة، مصر.
- موافي، عثمان. (١٩٩٩م). دراسات في النقد العربي. دار المعرفة الجامعية.
- نعيمة، ميخائيل. (١٩٢٣م). الغربال. المطبعة العصرية.